مجلة دراسات دوليّة

اسم المقال: مقال بعنوان (عودة الجيوبوليتكس انتقام القوى التقليدية) بقلم والتر رسل ميد
اسم الكاتب: سميرة ابراهيم عبد الرحمن
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/7064
تاريخ الاسترداد: 2025/04/22 01:03 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة دراسات دوليّة جامعة بغداد ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

عودة الجيوبوليتكس
انتقام القوى التقليدية

والتر رسل ميد

سميرة ابراهيم عبد الرحمن(*)

حتى وقتنا الحاضر [1] كان العام ٢٠١٤ وما أنفك عاماً مضطرباً، إذ طفت المنافسات الجيوبوليتكية على سطح المسرح الدولي. وسواء تحتل الآن القوات الروسية شبة جزيرة القرم، او ان تُصرّح الصين بمطالب عدائية في مياهها الساحلية، أو ان يأتي رد اليابان في انتهاجها إستراتيجية حازمة خاصة بها، أو ان تسعى ايران لاستخدام تحالفاتها مع سورية وحزب الله للهيمنة على الشرق الأوسط، فهي لعبة القوى التقليدية القديمة تعود الى العلاقات الدولية.

وأقل ما تجده الولايات المتحدة وأوروبا ان مثل هذه التيارات تكون مقلقة. فكلاهما كان ينبغي ان ينتقل من المسائل الجيوبوليتيكية القديمة حول الأرض والقوة العسكرية والتركيز عوضاً عن ذلك على مسائل تخص النظام الدولي والحكم العالمي مثل : التجارة، والليبرالية، وحظر الانتشار النووي، وحقوق الانسان، وفرض القانون، والتغير المناخي، وما الى ذلك . في الواقع، ومنذ نهاية الحرب الباردة، كان الهدف الأهم للسياسة الخارجية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي هو الانتقال بالعلاقات الدولية بعيداً عن قضايا لا رابح فيها ولا خاسر (zero-sum) باتجاه قضايا الكل فيها رابح (win-win) . وبالعودة الى تنافسات المدرسة القديمة مثل المنافسة

(*) مترجمة في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، جامعة بغداد.

*المقال منشور على صفحات مجلة الشؤون الخارجية (الفورين افيرز) الصادرة عن مجلس العلاقات الخارجية الأميركي في عددهار الصادر في ايار/مايو– حزيران/يونيو ٢٠١٤..**Foreign Affairs; May/June 2014**

** أستاذ جميس كلارك للشؤون الخارجية والانسانيات في كلية براد ومحرر بارز في مجلة اميركان انترست . يمكن متابعته على حسابه على تويتر **@wrmead** .

[1] أي وقت كتابة المقال في ايار/حزيران ٢٠١٤ .

الجارية الآن في اوكرانيا فانها لا تستنزف الوقت والطاقة من تلك القضايا المهمة فحسب، بل وتغير سمة السياسات الدولية . وما دام ينقلب المناخ الى قاتم ، فان مهمة دعم النظام الدولي والمحافظة عليه تغدو أكثر تثبيطاً للهمة.

ولكن ما كان ليتوقع الغربيون إطلاقاً ان تتلاشى الجغرافية السياسية قديمة الطراز . وما ساروا في تلك الدروب إلا لأنهم اسأؤوا قراءة ما كان يعنيه انهيار الاتحاد السوفيتي : النصر الايديولوجي للديمقراطية الليبرالية على الشيوعية بيد انه لم يؤول الى زوال القوة الصلبة . إذ لم تُستقدم الصين وروسيا وايران الى التسوية الجيوبوليتكية التي تلت الحرب الباردة، وتلك الدول بدورها تقوم وما انفكت بمحاولات قوية لقلب ظهر المجن على هذه التسوية . وجدير بالذكر ان هذه العملية لن تكون سلمية؛ وسواء نجح التعديليون ام لا، فان جهودهم قد اصابت بالفعل توزان القوى بالخلل وغيرت آليات السياسة الدولية.

شعور كاذب بالأمن

حينما انتهت الحرب الباردة، بدى أن الكثير من الأميركان والأوروبيين قد اعتقدوا ان المسائل الجيوبوليتكية الأكثر إرباكاً قد تم تسويتها . وخلصوا الى ما مؤداه انه ما خلا بعض المشاكل الصغيرة نسبياً، مثل محنة يوغسلافيا السابقة والصراع الإسرائيلي . الفلسطيني فان القضايا الأكبر في السياسة الدولية لم تعد تدور حول الحدود، أو القواعد العسكرية، أو تقرير المصير القومي، أو مجالات التأثير.

ومن نافل القول انه لا يمكن ان يُلقى باللوم على كاهل الناس لشعورهم بالأمل . فمقاربة الغرب لحقائق ما بعد الحرب الباردة قد ولدت شعوراً كبيراً. وانه من العسير رؤية كيف ان السلام العالمي لايمكن ان يتحقق دون استبدال التنافس الجيوبوليتكي ببناء نظام عالمي ليبرالي. وما برح الغربيون يتغافلون عن ان هذا المشروع يقوم على أسس جيوبوليتكية بعينها وضعت في بواكير تسعينيات القرن العشرين.

في أوروبا، شملت تسوية ما بعد الحرب الباردة توحيد المانيا، وتقطيع أوصال الاتحاد السوفيتي، وتوحيد دول حلف وارسو السابق وجمهوريات البلط يق في حلف الناتو والاتحاد الأوروبي. اما في الشرق الأوسط، استلزمت التسوية هيمنة القوى السُنية التي كانت متحالفة مع

الولايات المتحدة (السعودية، وحليفاتها الخليجية، ومصر، وتركيا) والاحتواء المزدوج لايران والعراق. وفي آسيا، كانت تعني هيمنة بلا منازع للولايات المتحدة متجسدة في سلسلة من العلاقات الأمنية مع اليابان وكوريا الجنوبية واستراليا واندونيسيا وحلفاء اخرين.

عكست هذه التسوية حقائق القوة في يومنا هذا، ولم تكن ثابتة مثلما كانت العلاقات الداعمة لها. ولسوء الحظ، خلط الكثير من المراقبين الظروف الجيوبوليتكية المؤقتة لعالم ما بعد الحرب الباردة مع النتيجة النهائية المفترضة للصراع الايديولوجي بين الديمقراطية الليبرالية والشوعية السوفيتية. وكانت الصيغة المشهورة للعالم السياسي فرانسيس فوكاياما بان نهاية الحرب الباردة عنت "نهاية التاريخ" هي عبارة حول الايديولوجية ولكن بالنسبة للكثيرين، فان انهيار الاتحاد السوفيتي لم يعنِ ان الصراع الايديولوجي للبشرية قد انتهى لصالح ما هو افضل فحسب، بل اعتقدوا ان الجغرافية السياسية نفسها قد وصلت الى نهاية دائمة.

وللوهلة الأولى، تبدو هذه الخلاصة كاستقراءٍ لحجة فوكاياما بدلاً من ان تكون تحريفاً وتشويهاً لها. وبعد هذا وذلك، تقوم فكرة نهاية التاريخ على الإرهاصات الجيوبوليتكية للصراعات الايديولوجية منذ ان فسرها للمرة الأولى الفيلسوف الألماني جورج فيلهيام هيغل في مستهل القرن التاسع عشر. فبالنسبة لهيغل، أسدلت معركة جنا (Jena) في العام ١٨٠٦ الستار على حرب الافكار. فمن وجهة نظر هيغل، مَثّل التدمير التام الذي الحقه نابليون بونابرت بالجيش الروسي في حملته السريعة انتصاراً للثورة الفرنسية على الجيش الأفضل الذي يمكن ان تخرجه أوروبا ما قبل الثورة. وراح هيغل يجادل بان هذا شَكّل نهاية التاريخ ذلك انه في المستقبل فان الدول التي تتبنى مبادئ وآليات فرنسا الثورية وحدها فحسب القادرة على المنافسة ودق آسفين بقائها.

وبتطبيق ذلك على عالم ما بعد الحرب الباردة، تم تناول هذا الجدل ليعني انه في المستقبل، سيكون على الدول ان تتبنى مبادئ الرأسمالية الليبرالية اذا ما أرادت هذه الدول ان تستمر. وقد اظهرت المجتمعات الشيوعية المغلقة كالتالي كانت في الاتحاد السوفيتي نفسها على انها غير مبدعة وغير منتجة كي تتنافس اقتصادياً وعسكرياً مع الدول الليبرالية . كما ان انظمتها السياسية كانت أيضاً مضطربة ما دام ليس ثمة شكل اجتماعي ما خلا الديمقراطية الليبرالية التي قدمت حرية وكرامة وافية لأي مجتمع معاصر ليبقى ثابتاً.

ومن يُريد محاربة الغرب بنجاح، عليه ان يصبح مثل الغرب واذا ما حدث ذلك فانه سيغدو مجتمعاً ضعيفاً ومسالماً لا يريد المحاربة من أجل أي شي بتاتاً . والاخطار المتبقية الوحيدة المطروحة امام تحقيق السلام العالمي قد تأتي من الدول المارقة مثل كوريا الشمالية . وانه على الرغم من انه قد تكون لمثل هذه البلدان الرغبة في تحدي الغرب إلاّ انها قد تكون مشلولة بل وعاجزة أيضاً ببناها الاجتماعية والسياسية التي عفا عليها الزمن عن تجاوز حتى مستوى الازعاج ليس إلاّ (ما لم تطور أسلحة نووية بالطبع). ومن ثم، فان الدول الشيوعية السابقة، مثل روسيا باتت امام خيار. فاما ان تركب موجة الحداثة وتمسي ليبرالية ومنفتحة ومسالمة، أو ان تتشبث بمرارة بأسلحتها وثقافتها بينما يتجاوزها العالم ماضياً قدماً.

في مستهل الامر، بدى ان كل شي على ما يرام . وعلى مر الزمن، تحول التركيز من الجيوبولتيكس الى اقتصادات التنمية وحظر الانتشار، ويتجه ثقل السياسة الخارجية نحو مسائل مثل التغير المناخي والتجارة. ان القراءة المركبة لنهاية الجيوبولتيكس ونهاية التاريخ قدمت للولايات المتحدة توقعاً ملفتاً فالفكرة هي ان البلد يمكن ان يبدأ بوضع القليل في النظام الدولي ويجني في جعبته الكثير مقابل ذلك . إذ يستطيع ان يقلص انفاقه على الدفاع، ويقلل مخصصات وزارة الخارجية وتخفيض حضوره في المناطق الساخنة ..عندها سيمضي العالم قدماً ليغدو أكثر ازدهاراً وأكثر حرية.

راقت هذه الرؤية لليبراليين والمحافظين على حد سواء في الولايات المتحدة . فعلى سبيل المثال، قلصت ادارة الرئيس كلينتون ميزانية وزارتي الدفاع والخارجية، وبالكاد تمكنت من اقناع الكونغرس في الاستمرار بدفع مستحقات الولايات المتحدة للأمم المتحدة . في الوقت عينه، افترض جدلاً صناع السياسة ان النظام الدولي علّه يصبح اقوى وأوسع امتداداً بينما يستمر في ان يلقي بثماره اليانعة في جعبة الولايات المتحدة. وراح الانعزاليون الجدد من الجمهوريين مثل النائب السابق رون باول من تكساس يجادلون انه نظراً لغياب تحديات جيوبولتيكية خطيرة ست تمكن الولايات المتحدة من ان تخفض تخفيضاً كبيراً كل من انفاقها العسكري ومساعدتها الخارجية بينما تستمر الإستفادة من النظام الاقتصادي العالمي.

بعد الحادي عشر من ايلول، قامت سياسة الرئيس جورج دبليو بوش الخارجية على الاعتقاد بان ارهابيي الشرق الأوسط شكلوا خصماً فريداً خطراً، وشن ما أطلق عليه حرباً طويلة ضدهم. في بعض الجوانب، بدى ان العالم كان يعود الى دوامة التاريخ . إلاّ ان ايمان ادارة بوش بان الديمقراطية يمكن ان تزرع سريعاً في الشرق الأوسط العربي، بدءً من العراق، اثبتت عن قناعة راسخة بان المد العام للاحداث الجارية كانت تصب في صالح أميركا.

بنى الرئيس باراك اوباما سياسته الخارجية على قناعة مؤداها ان "الحرب على الارهاب" كان مبالغاً بها، وان التاريخ انتهى حقاً، وان الاولويات الأهم للولايات المتحدة، كما في سنوات إدارة كلينتون، شملت تعزيز النظام العالمي الليبرالي لا ممارسة الجيوبوليتكس التقليدية ووضعت الإدارة أجندة طموحة للغاية في دعم ذلك النظام : اعتراض وصول ايران الى الاسلحة النووية، وحل النزاع الإسرائيلي . الفلسطيني والتفاوض بشأن معاهدة دولية عن التغير المناخي، وابرام اتفاقيات تجارية عبر الباسيفيك والاطلسي، وتوقيع معاهدات الحد من التسلح مع روسيا، واصلاح علاقة الولايات المتحدة مع العالم الاسلامي، ودعم حقوق المثليين جنسياً، وإستعادة الثقة مع الحلفاء الأوروبيين، وانهاء الحرب في افغانستان . وفي الوقت عينه، خطط اوباما لتخفيض الإنفاق على الدفاع، وتقليص التدخل الأميركي في المسارح العالمية الرئيسة، مثل أوروبا والشرق الأوسط.

محور شر؟[1]

ولعل كل هذه القناعات المفرحة على وشك ان توضع على المحك والاختبار . فبعد خمسة وعشرين عاماً على سقوط جدار برلين، سواء ركز المرء على المنافسة بين الاتحاد الأوروبي وروسيا حول اوكرانيا والتي أفضت الى احتلال موسكو لشبه جزيرة القرم، او المنافسة المحمومة بين الصين واليابان في شرق آسيا، او تصنيف الصراعات الطائفية ضمن التنافسات الدولية والحروب الاهلية في الشرق الأوسط، فان العالم الآن لم ينته التاريخ فيه بعد . وبسبل شتى، وبأهداف موضوعية مختلفة، تسعى الصين وروسيا وايران لمعارضة التسوية السياسية التي افرزتها الحرب الباردة

[1] (**an Axis of Weevils**) هو اسم يحاكي من حيث الجرس الصوتي في الانجليزية تسمية جورج دبليو بوش لدول محور الشر : (محور سوس وآفات الزروع والفاكهة **an Axis of Weevils**) في مقابل (**an Axis of Evil**). المترجمة

ولعل من المفيد القول، ان العلاقات بين هذه القوى التعديلية الثلاثة تكون معقدة . فعلى المدى البعيد، تخشى روسيا من صعود الصين . اما طهران، فان لدى وجهة نظرها العالمية القليل من القواسم المشتركة ومع وجهتي نظر كل من بكين وموسكو . إذ ان ايران وروسيا بلدان مصدران للنفط ويحبذان ان تكون اسعار النفط مرتفعة، اما الصين فانها مستهلك للنفط وتريد لاسعاره ان تكون منخفضة . كما ان الاستقرار السياسي في الشرق الأوسط يمكن ان يعمل لمصلحة ايران وروسيا إلاّ انه يطرح مخ اطر كبيرة للصين . عليه، لا ينبغي للمرء ان يتحدث عن تحالف إستراتيجي بينهم. وعلى مر الزمان اذا ما نجحوا في تقويض التأثير الأميركي في اورآسيا، فمن المرجح ان تزداد التوترات بينها لا ان تتضاءل . ان ما يربط هذه القوى ببعضها هو اتفاقها بان الوضع الراهن يجب ان يَّع دل. إذ تريد روسيا إعادة تجميع أكبر قدر ممكن من الاتحاد السوفيتي. في حين لا يدور في خلد الصين إرضاء نفسها بدور ثانوي في الشؤون العالمية مثلما لن تقبل بالمدى الحالي للتأثير الأميركي في آسيا والوضع الاقليمي الراهن هناك . وترغب ايران ان تستبدل النظام الحالي في الشرق الأوسط .. تقوده السعودية وتهيمن عليه الدول العربية السنية .. بنظامٍ اخر يتخذ من طهران مركزاً له.

كما يتفق الزعماء في البلدان الثلاثة جميعها على ان القوة الأميركية هي العائق الرئيس امام تحقيق اهدافهم التعديلية . ومن نافل القول ان عداءهم لواشنطن ونظا مها يكون هجومياً ودفاعياً في الوقت عينه. فهم لا يأملون كثيراً ان ييسر تراجع القوة الأميركية إعادة ترتيب مناطقهم فحسب، بل هم قلقون أيضاً من ان واشنطن، ربما تسعى للاطاحة بهم اذا ما نشب خلاف داخل بلدانهم . عليه، يريد التعديليون تفادي مواجهات مباشرة مع الولايا ت المتحدة ما خلا حالات نادرة حينما تميل كفة الأرجحية لصالحهم (كما في الاجتياح الروسي لجورجيا ٢٠٠٨ واحتلال شبه جزيرة القرم وضمها هذا العام). وعوضاً عن تحدي الوضع الراهن المتزعم، فانهم يسعون سعيهم الحثيث الى تقطيع اوصال الاعراف والعلاقات التي تدعم ذلك الوضع.

ومنذ ان أضحى اوباما رئيساً للولايات المتحدة، انتهجت كل واحدة من هذه القوى إستراتيجية مميزة في ضوء مكامن قوتها وضعفها . فالصين التي لها القدرات الأكبر من بين الثلاثة كانت وما أنفكت الأكثر احباطاً على نحو مثير للتناقض. فمساعيها لتأكيد نفسها في المنطقة ما

كان لها إلاّ ان وثقت الروابط بين الولايات المتحدة وحليفاتها الآسيويات وعززت المد القومي في اليابان. وعليه، كلما نمت قدرات بكين كلما زاد شعورها بالاحباط . فالصعود في قوة الصين سيماثله صعود في تصميم اليابان وصدق عزيمتها، ومن ثم ستميل كفة الرجحان الى جهة ان تلقي التوترات في آسيا بظلالها على الاقتصاد والسياسة العالميين.

ايران وبالرغم من انها الأضعف من بين الدول الثلاثة على وفق الكثير من المعايير إلاّ ان لها السجل الأكثر نجاحاً. إذ ان غزو الولايات المتحدة للعراق ومن ثم انسحابها السابق لأوانه من هنالك قد مكّن طهران من ان تعزز علاقات عميقة ودائمة مع مراكز قوى ذات شأن عبر الحدود العراقية، وهو تطور غيّر توازن القوى الطائفي والسياسي في المنطقة . ففي سورية، كانت ايران وما انفكت قادرة، بمساعدة حزب الله، حليفها القديم، على ايقاف المد العسكري ودعم حكومة بشار الأسد في وجه المعارضة القوية من الحكومة الأميركية . وهنا، لا بد من القول ان هذا النصر الذي حققته السياسة الواقعية قد اضاف الكثير الى قوة ايران ومكانتها . وفي ارجاء المنطقة، أضعف الربيع العربي الانظمة السُنية وجعل كفة الرجحان في شأن التوازن تميل كثيراً لصالح ايران. وهكذا يفعل الانقسام المتنامي بين الحكومات السُنية بشأن ما ينبغي فعله مع الاخوان المسلمين وفروعهم ومواليهم في المنطقة.

في هذه الاثناء، ظهرت روسيا كقوة تعديلية وسطى : أكثر قوة من ايران وأضعف من الصين، وأكثر نجاحاً من الصين في الجيوبوليتكس و أقل قوة من ايران . إذ كانت روسيا وما فتئت فاعلة في دق اسفين الشقاق بين المانيا والولايات المتحدة، إلاّ ان طموح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين المتمثل في إعادة بناء الاتحاد السوفيتي قد اعاقته الامكانيات المحدودة لقوة بلاده الاقتصادية. ومن اجل بناء كتلة اورآسية حقيقية، مثلما يحلم بوتين بفعله، فان على روسيا ان تدفع فواتير جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة.. وهو امر لا تقوى على تحمل كلفته واعبائه.

مع ذلك، ورغم قصر يده، كان بوتين ناجحاً نجاحاً ملحوظاً في احباط المشاريع الغربية على الاراضي السوفيتية السابقة. إذ انه أوقف توسع الناتو، وقطع اوصال جورجيا، وجذب ارمينيا الى فلكه ومداره وشدد قبضته على شبة جزيرة القرم . اما مغامرته الاوكرانية فانه تعامل مع الغرب بعنصر المفاجئة غير السارة والمذلة. من وجهة نظر الغرب، يبدو ان بوتين يحكم على بلده بمستقبل

قاتم من الفقر والتهميش. إلا ان بوتين لا يؤمن بان التاريخ قد انتهى، فمن وجهة نظره انه عزز سلطته في الداخل وذّكر القوى الاجنبية المعادية بان الدب الروسي ما زال لديه مخالب حادة

القوى المهيمنة

من نافل القول ان القوى التعديلية لديها اجندات وقدرات متنوعة بحيث لا يمكن ان توافر ذلك النو ع من المعارضة المنهجية والعالمية التي وافرها الاتحاد السوفيتي . وبالنتيجة، كان الأميركان وما فتئوا بطيئين في إدراك ان هذه الدول قد قوضت النظام الجيوبوليتكي الآوراسي بطرقٍ عقدت المساعي والجهود الأميركية والأوروبية الرامية لارساء قواعد عالم ما بعد نهاية التاريخ.. عالم الجميع فيه رابح.

وما زال يمكن للمرء ان يشهد ارهاصات هذا النشاط التعديلي (حراك التغيير) في الكثير من المناطق. ففي شرق آسيا، لم يحقق موقف الصين الحازم الكثير من التقدم الجيوبوليتكي الحقيقي، إلاّ انه غيّر جذرياً الدينامية السياسية في المنطقة ذات الاقتصادات الأسرع نمواً على وجه الارض. فالسياسة الآسيوية اليوم تدور حول التنافسات القومية، والمزاعم الاقليمية المتنازعة والتعزيزات البحرية، وقضايا تاريخية مشابهة . لقد اطلقت الصحوة القومية في اليابان، وهي رد مباشر على اجندة الصين، عملية تكون فيها القومية الصا عدة في بلدٍ مغذية لصعودها في البلد الاخر. والآن تُصّعد كل من الصين واليابان من خطابهما، وتزيدان من ميزانيتهما العسكرية وتبدأن أزمات ثنائية بتواتر أكبر وتركزان أكثر فأكثر على التنافس ذي المحصلة الصفرية (Zero Sum).

وعلى الرغم من ان الاتحاد الأوروبي يبقى في لحظة ما بعد التاريخ، الا ان جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة غير الأعضاء في الاتحاد الأوروبي تحيا الآن في عصر مختلف تماماً . ففي السنوات القليلة الماضية، تلاشت الآمال بتحويل الاتحاد السوفيتي السابق الى منطقة ما بعد التاريخ إذ لم يكن الاحتلال الروسي لاوكرانيا الا الخطوة الأخيرة في سلسلة خطوات حولت شرق أوروبا الى منطقة نزاع جيوبوليتكي حاد وصيّرت الاستقرار والحكم الديمقراطي الفاعل مستحيلاً خارج دول البلطيق وبولندة.

في الشرق الأوسط، يكون الوضع أكثر حدة . إذ ذهبت ادراج الرياح الاحلام المتمثلة في دنو العالم العربي من نقطة تحول ديمقراطي .. وهي الأحلام التي رسمت شكل وملامح السياسة الأميركية في ظل ادارتي بوش واوباما. وعوضاً عن بناء نظام ليبرالي في المنطقة، فان صناع السياسة الأميركان يتشبثون الآن بتفكيك نظام الدولة الذي يرجع تاريخه الى اتفاقية سيايكس بيكو في العام ١٩١٦ والتي قسمت ولايات الامبراطورية العثمانية الشرق أوسطية حيث يتآكل الآن الحكم في العراق ولبنان وسورية . وبذل اوباما ما بوسعه لفصل القضية الجيوبوليتكية بشأن صعود قوة ايران عبر المنطقة عن مسألة اذعانها لاتفاقية حظر الانتشار النووي . إلاّ ان إسرائيل والسعودية اللتين تخشيان طموح ايران النووي تجعلان مهمته صعبة وعسيرة على التحقيق . كما تمثل روسيا عائقاَ اخر امام تحقيق اتفاق مع ايران إذ استغلت مقعدها في مجلس الامن وراحت تؤيد الأسد لتقويض الأهداف الأميركية في سورية.

وترى روسيا تأثيرها في الشرق الأوسط بوصفه رصيداً مه ماً في المنافسة مع الولايات المتحدة. ومما تجدر الاشارة اليه ان هذا لا يعني ان موسكو ستعارض انعكاسياً الأهداف الأميركية في كل مناسبة، إلاّ انه يعني ان نتائج الربح للجميع التي يسعى وراءها الأميركان بلهفة ستجعل منها رهينة للمصالح الجيوبوليتيكية الروسية. فعلى سبيل المثال، في تقرير مدى شدة الضغط على روسيا بشأن اوكرانيا، لا يمكن للبيت الابيض ان يتفادى تقدير وحساب تأثير ذلك على الموقف الروسي من الحرب السورية أو البرنامج النووي الايراني. كما لا بد من القول ان روسيا لا تستطيع ان تجعل من نفسها بلداً اغنى أو بلداً أكبر مساحة، بيد انها جعلت من نفسها عاملاً أكثر أهمية في التفكير الإستراتيجي الأميركي ومن ثم تستخدم ذلك الثقل لانتزاع تنازلات تعنيها وتُلقي لها بالاً.

وفي حال اكتسبت هذه القوى التعديلية أرضية تستند عليها، فان قوى الوضع الراهن ستُقوض. والتدهور الأخطر يكون في أوروبا، حيث كارثة العملة الموحدة ثقيلة الوطأة قد قسمت الرأي العام وحولت اهتمام الاتحاد الأوروبي نحو نفسه . ولعل الاتحاد الأوروبي تفادى النتائج المحتملة الأسوء لأزمة اليورو، إلاّ ان كل من رغبته وقدرته على إنجاز فعل مؤثر يقع خارج حدوده قد ضعفت على نحو خطير.

ومع ان الولايات المتحدة لم تعانِ ضيقاً اقتصادياً كالذي عانت منه أوروبا، إلاّ ان البلد يواجه آثاراً سياسة خارجية سيئة خلفتها حروب عهد بوش، ودولة تزداد مراقبتها تطفلاً بدرجة كبيرة، وانتعاشاً اقتصادياً بطيئاً وقانون رعاية صحية لا ينال الرضا والقبول الشعبي، فما كان من العامة إلاّ ان باتت فاسدة المزاج . وسواء من اليسار أو اليمين، يطرح الأميركان تساؤلات عن منافع النظام العالمي الحالي وكفاءة مهندسيه. علاوة على ذلك، تتشاطر العامة مع النخبة الإجماع في انه فيما بعد الحرب الباردة ينبغي على الولايات المتحدة ان تكون قادرة على دفع الأقل في النظام وتكسب أكثر. وحينما لا يحدث هذا فان الشعب يلقي باللوم على كاهل قادته . وفي أي قضية، ثمة القليل من رغبة الشعب في مبادرات جديدة أوسع في الداخل أو الخارج، ويشيح بوجهه عن قبول قطبية واشنطن بمزيج من الازدراء والتبرم.

وجاء اوباما الى السلطة وفي خلده تخفيض الإنفاق العسكري، وتقليل أهمية السياسة الخارجية في السياسة الأميركية، وتعزيز النظام العالمي الليبرالي .. وبعد انقضاء أكثر من نصف مدته الرئاسية يجد نفسه يغوص في مستنقع انواع من التنافسات الجيوبوليتكية التي أمل في ان يتجاوزها. لا غرو في ان الثأرية الصينية والايرانية والروسية لم توفق حتى الان الى قلب تسوية ما بعد الحرب الباردة في اورآسيا ولعلمهم لن يستطيعوا ذلك، إلا انهم حولوا الوضع من وضعٍ بلا منازع الى وضعٍ متنازعٍ عليه. ولم يعد الرؤوساء الأميركان أحراراً في مسعاهم لتعميق النظام الليبرالي . فالجدير بالذكر انهم باتوا معنين على نحو متزايد بتدعيم أسسه الجيوبوليتكية.

غروب التاريخ

بعد إنقضاء اثنين وعشرين عاماً على نشر فوكاياما كتابيه "نهاية التاريخ" و "الرجل الأخير"، من المغري الآن ان نشهد عودة الجيوبوليتكس لتكون تفنيداً ودحضاً حاسماً لنظريته . والحقيقة أكثر تعقيداً مما تبدو. فنهاية التاريخ مثلما ذّكر فوكاياما قراءه، كانت فكرة هيغل، إذ راح هيغل يجادل انه حتى لو انتصرت الدولة الثورية على الأنواع القديمة من الأنظمة لأجل الخير، فان المنافسة والصراع سيستمران . وتنبأ انه قد تكون هنالك اضطرابات في الاقالي م حتى اثناء انتقال مراكز الحضارة الأوروبية الى عصر ما بعد التاريخ . ونظراً الى ان اقاليم هيغل تشمل الصين والهند

واليابان وروسيا، فمن العسير بمكان ان نفاجأ انه على مدار أكثر من قرنين من الزمان تلت لم تتوقف الاضطرابات قط. فلا تثريب في القول اننا نعيش في غروب التاريخ لا نهايته الفعلية.

ان نظرة هيغلية للصيرورة التاريخية اليوم تؤمن بان القليل قد تغير جوهرياً منذ بداية القرن التاسع عشر. ومن أجل ان تكون قوية، فانه يتحتم على الدول ان تطور افكار ومؤسسات تسمح لها باستغلال القوى الهائلة للرأسمالية الصناعية والاعلامية . إلاّ انه ليس ثمة بديل، فالمجتمعات غير القادرة أو الراغبة بالسير في دروب هذا الطريق سينتهي بها المطاف مادة للتاريخ لا صانعة له.

بيد ان السبيل الى ما بعد الحداثة ما أنفك وعراً. فمن أجل ان تزيد من قوتها، سيكون على الصين، على سبيل الذكر، ان تنتهج عملية تنمية اقتصادية وسياسية والتي ستتطلب من البلد ان يتغلب على المشاكل التي سبق ان واجهتها المجتمعات الغربية الحديثة وما برحت تفعل ذلك . بيد انه ليس ثمة ضمانة بان طريق الصين نحو الحداثة الليبرالية المستقرة سيكون أقل اضطراباً، لنقل، من ذلك الذي وطأته وسارت على طرقاته المانيا. ان غروب التاريخ لا يكون وقتاً هادئاً.

ونال الجزء الثاني من كتاب فوكاياما اهتماماً أقل ربما لأنه حمل إطراءً أقل للغرب . فحينما استقصى فوكاياما عما سيكون عليه مجتمع ما بعد التاريخ، فانه توصل الى اكتشافٍ مقلقٍ. ففي عالم حيث القضايا الكبرى تم حلها وحي ث الجيوبوليتكس تم اخضاعها للاقتصاد، فان الانسانية ستبدو مثل عدمية [1] "الانسان الاخير" الذي وصفه الفليسوف فريدريك نيتشه : مستهلك أناني لا تتعدى أكبر طموحاته الزيارة المقبلة للمركز التجاري (المول).

بمعنى اخر، سيشابه هولاء الناس بيروقراطبي أوروبا وجماعات الضغط في واشنطن اليوم. فهم مؤهلون كفاية لادارة شؤونهم وسط أناس ما بعد التاريخ، إلاّ ان فهمهم وادراكهم لدوافع سياسيي القوة التقليدية واحتواء استراتيجتهم يكون امراً عسيراً عليهم . وعلى العكس من منافسيهم الأقل انتاجية والأقل استقراراً، يكون أناس ما بعد التاريخ غير راغبين في تقديم

[1] مذهب ينكر ان يكون للمبادئ الاخلاقية أي أساس موضوعي . كما انه مذهب يقول بان الاحوال في المجتمع من السوء بمكان يجعل الهدم مرغوباً فيه لذاته وبمعزل عن أي برنامج انشائي. (المترجمة نقلاً عن قاموس المورد، ط ٤٠، ٢٠٠٦)

تضحيات، ويركزون جل اهتمامهم على المدى القصير، ويمكن صرف انتباههم بسهولة، ويفتقرون الى الشجاعة.

ان وقائع الحياة الشخصية والسياسية في مجتمعات ما بعد التاريخ تختلف تماماً عن تلك المجتمعات في بلدان مثل الصين وايران وروسيا حيث شمس التاريخ ما زا لت تشرق هناك . ولا تكمن المسألة في ان هذه المجتمعات المختلفة تدفع الى المقدمة شخصيات وقيم مختلفة، بل وان مؤسساتها تعمل بشكل مختلف كُلّية وان شعوبها توسم بافكار مختلفة.

ان المجتمعات الممتلئة باخر رجال (ونساء) نيتشه تُسيء تمييزياً فهم وتقدير ما يفترض انهم خصومهم البدائيون في ما يفترض انها مجتمعات رجعية .. منطقة عمياء[1] يمكن ان توازن مؤقتاً على الأقل، المنافع الاخرى لبلدانها . ولعل تيار التاريخ يجري بعناد باتجاه الديمقراطية الرأسمالية الليبرالية، وان شمس التاريخ تختفي وراء التلال . ولكن حتى وان تطاولت الظلال وبز غت أول النجوم فان شخصيات مثل بوتين ما تزال تخطو على مسرح العا لم . لن يتصرفوا بلطف، وسيغضبون في تلك الليلة الجميلة، غضباً ضد انحسار الاضواء عنهم.

[1] منطقة في إدراك المرء يعجز معها عن الفهم أو التمييز. (المترجمة)